الفصل الأول

الخطابة

تصور القدماء والعرب للخطابة

هل الخطابة ضرورية ؟ وإذا كانت فنًّا أدبيًّا فهل يقصد بها الفن لنفسه أم تقصد لما يرجى لها من نفع ؟ وإذا اندفعت الفنية الخطابية عند الأديب فهل لها أن تبقى على المقاييس الخلقية التي وضعها الأخلاقيون، أم لها أن تنطلق من هذه القيود لتمضي فى طريق الفن إلى الغاية بغض النظر عن اعتبارات الخلق وقيم السلوك ؟

لقد اتخذ السوفسطائيون الخطابة — قبل تقنين الفلسفة — وسيلة إلى نشر المعارف النسبية ، لأن المعارف والحقائق العلمية الثابتة لا وجود لها فى عالم متغير كل لحظة ، ومن هنا نادوا بمبدأ المنفعة لا مبدأ الحقيقة ما دامت هذه الأخيرة مطلباً يدنو من المحال . ومن هنا اعتمدوا على الخطابة والمقدرة الكلامية والقوة البيانية أكثر من اعتمادهم على الدليل والمنطق والبرهنة . فكل كلام مزوق عندهم، وكل عبارات منمقة فى رأيهم هى الطريق لكسب المنفعة ، أما البحث وراء حقائق الأشياء فعبث باطل ، ووقت ضائع ما دامت لا توجد هناك حقائق ثابتة .

وعلى هذا الأساس انتشر خطباء السوفسطائيين فى بلاد اليونان ينشرون فيها هذه الآراء الخطيرة، ويخطبون فى الشباب خطباً كان لا بد لها من زمام يكبح جماحها ، ولقد ظهر هذا الزمام فيما تناول به سقراط وأفلاطون وأرسطوموضوع الخطابة بما يغير ذلك النظر القديم للأشياء ، وبما يصد من تيار السفسطة الجارف الذى كاد يودى بكثير من القيم وقواعد الأخلاق .

ولقد كانت الخطابة عند السوفسطائيين عملية تجريبية ، فلم يلجأوا فيها إلى النظريات والتعريفات والرسوم والحدود والتقسيمات ، بل تناولوها بالعمل وملأوا بها محافل اليونان ، وغزوا بها الجماهير . إلى أن جاء الثلاثة الفلاسفة الكبار ، فنقلوها من ميدان العملية إلى ساحة النظرية ، فتحدث عنها سقراط ، ووضع حدوداً لترتيبها ، ورسم خطة لهيكلها ، وأقامها على الجدل ، وبناها على التركيب والتحليل النفسيين ، وشاكل بين طبقات الرجال وبين الخطب التى تناسب كل طبقة ، وفرض على الخطيب أن يدرس الفروق النفسية ، بل يدرس نفسه ليعرف كيف يتخير الكلام المناسب فى اللحظة المناسبة ، وكيف يجب عليه أن يسكت حين يدعوه المقام إلى السكوت ، وكيف يجب أن ينفعل حين يقتضى الموقف الانفعال .

ولقد كتب أفلاطون فى الخطابة فجعلها من كمالات النفس ، وإن كان الكمال عنده ظاهريًّا غير حقيقى ولا ضرورى ، لأن الكمال النفسى الحقيقى عنده هو كمال طريقة السياسة ، فإذا أعوزت السياسة امرأ لجأ إلى البلاغة والبيان الممثلين فى الخطابة ليكمل بها نفسه .

ثم جاء أرسطو فكتب فى الخطابة كتاباً يعد أوسع دستور لها فى القديم ، فلم يكتف بخطرات سقراط ، ولا باللمع البيانية عند أفلاطون ، ولكنه وضع من القواعد والأصول العامة للخطابة ما يعد به فارس هذه الحلبة .

وإذا صح ما رواه الجاحظ من أن أرسطو « كان بكىء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعانيه وخصائصه » وما ذكره مولتندورف من افتراضه ضعف المقدرة الخطابية عنده ، فإن ذلك لا يزيدنا — على غرابته — إلا إيماناً بأن الفن شىء ووضع القواعد والأصول له شىء آخر . فقد وضع الخليل بن أحمد علم العروض ولكنه كان أبعد ما يكون عن الشاعر بالمعنى الفنى للكلمة .

وإذا كانت الخطابة قد اتجهت عند السوفسطائيين إلى كسب المنفعة ، فإنها كانت عند أفلاطون وسيلة لتقرير الأخلاق وغرس أصولها فى النفوس ، ولهذا لم يجعل عمادها قوة العارضة وقوة اللدد وقدرة البيان فحسب ، بل جعل دعامتها قوة الفضائل النفسية التى تهدف إلى السعادة والخير .

وعلى الرغم من أن أرسطو حاول أن يفصل بين الخطابة والخلق ليجعل من الأولى مجالاً مستقلاً للإصلاح ، فإنه يجعل من الخطب الاستشارية ميداناً للنصح والتحذير ، وصُولاً بالناس إلى السعادة وإلى الحياة الهادئة الآمنة . وواجب الخطيب عنده هنا أن يعرف السعادة ومصادرها ومظاهرها ومقوماتها ومنغصاتها حتى يستطيع أن يقنع سامعيه وأن يستميلهم إلى ما يريد .

والآن نسأل : هل نظر العرب إلى الخطابة هذه النظرة النظرية ؟ وهل تكلموا فى ضرورتها وفنيتها ومنفعتها نظراً ، قبل أن يمارسوها على المنابر عملا ؟

لقد كان العرب فى الجاهلية خطباء بالفطرة ، أبيناء بالطبع ، فما هى إلا أن يقوم داع من دواعى الخطابة فيلبوه ، كالمفخرة والوفود ، وإصلاح ذات البين ، والوصايا والزواج . فالخطابة عندهم كانت ضرورة من ضرورات مجتمعهم . ولما جاء الإسلام سارت الخطابة فى ركاب الدعوة الجديدة ، تخدم أغراضها وتنادى الناس إلى الدخول فيها . فلما اصطرع المسلمون ذلك الصراع العنيف بين حزبى العلويين والأمويين اتخذت الخطابة عدة فى ذلك الصراع ، وقامت بجانب السيف تسانده وتعاضده .

إلا أنه بجانب ذلك كانت خطب الجمع ترن فى آذان الجماعة الإسلامية مرة كل أسبوع، فى كل مسجد خطبة ، وعلى كل منبر خطيب . والجماهير تهوى هوياً إلى هذه المنابر التى كانت — ولا تزال — خطبة الجمعة فيها قبل الصلاة ، حتى لا يجد المصلون سبيلاً إلى التسلل أو التخلص من سماعها . ولم تتم صلاة الجمعة إلا بسماع خطبتها . ومن هنا كان تقدير الإسلام للخطابة الدينية تقديراً مبنياً على الوجوب والتحتيم .

وربأ الإسلام بخطبة الجمعة أن تكون وعظاً معاداً مكروراً ، ونغمة رتيبة ، فجعلها تدور حول ما يهم الجماعة الإسلامية ويشغل بالها من الأمور المستحدثة والمسائل الجارية ، والقضايا التى تتصل بمصالحهم .

ولهذا كانت خطب الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من خطباء الأمويين والعباسيين ميداناً لمعالجة القضايا الإسلامية القائمة .

وقد جرت خطب صدر الإسلام والعصر الأموى على مجرى من البلاغة والبيان ، وقوة العبارة ، ومتانة السبك ، والدلالة على المعنى ، مجرى لم يرجعوا فيه إلى قاعدة مكتوبة ، أو قانون بيانى مرسوم . فهم يعرفون مواقع القول ، ومرامى الكلام ، وإصابة السهام ، على هدى من فطرهم ، وكان لأسلوب القرآن والحديث النبوى أثر كبير حاكوه وجروا على مثاله .

وأول من التفت إلى الخطابة العربية فكتب عنها ووصف مقوماتها ، وذكر بزة الخطباء ولبستهم ووقفتهم واستعمالهم المخاصر والعصى والقسى للاتكاء عليها ، وعيوبهم الخلقية والبيانية ، ومواقفهم ، وصفات الإجادة فيهم ، وشروط البلاغة عندهم ، وتقاسيم الخطب بداية وختاماً ، وإيجازاً وتطويلا ، واستشهاداً بالقرآن ، وتمثلاً بالشعر وغير ذلك من عشرات المسائل — أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » . وهو أول كتاب يعالج الخطابة فى الأدب العربى ، إلا أنها معالجة غير مستقلة ولا قائمة بذاتها ، وإنما هى مسائل منثورة متفرقة هنا وهناك فى خلال هذا الكتاب الضخم الذى يعالج البيان العربى جملة بما فيه من بلاغة وفصاحة ، كما يعالج فنوناً من القول منها الخطابة والشعر والرجز والقصص وغيرها .

والحق أن كتابة الجاحظ عن الخطابة لم تعد أن تكون أخباراً عنها وعن الخطباء ، ونتفاً عن هيئات الخطباء وإشاراتهم وعيوبهم ، وذكراً لصحيفة بشر بن المعتمر حين مر برجل يعلم الفتيان الخطابة فصرفهم عنه إلى نفسه

ودفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنسيقه . وهى فى الحق ليست دستوراً للخطابة البليغة وحدها ، وإنما هى دستور للكلام البليغ على وجه العموم .

ولقد جاء بعد الجاحظ بقرابة نصف قرن من الزمان ناقد بيانى تكلم عن الخطابة فى فصل من فصول كتابه المسمى « نقد النثر » . والحق أن قدامة ابن جعفر صاحب هذا الكتاب لم يأت بجديد فيما كتبه عن الخطابة ، وأغلب الظن أنه لم يستفد من كتاب أرسطو الذى كان قد ترجم قبل ذلك بزمن غير قصير .

ومر على الأدب العربى زمن طويل لم تعالج فيه الخطابة معالجة موضوعية ، ولم يهتم أحد بكتاب « الخطابة » الذى لخصه وترجمه فيلسوفان : أحدهما من أهل المشرق وهو ابن سينا ، والآخر من أهل المغرب وهو ابن رشد ، ولم نظفر فى خلال ألف عام إلا بكتاب يجمع خطب « ابن نباتة الفارقى » من خطباء القرن الرابع الهجرى ، وقد قصد منه أن يجعله نماذج عملية للفن الخطابى ، وإن كان لم يحدثنا عن أدواتها ، أو على الأقل عن عيوبها ، كما فعل أصحاب « البيان والتبيين » و « نقد النثر » و « العقد الفريد » من قبله .

وجاء القرن العشرون الميلادى فاتجهت الأنظار إلى الكتابة فى الفن الخطابى بما يلائم التطور الأدبى الذى بلغته الآداب العربية فى عصرنا هذا ، وظهرت بضعة من الكتب أقدمها كتاب للأب لويس شيخو اليسوعى ، عالج فيه الموضوع على طريقة السؤال والجواب ، واهتم بالأدلة والمواضع الجدلية والأقيسة ، فكان فى الحق أول كتاب فى الأدب العربى يعالج الموضوع معالجة مستقلة .

ولن تعين دراسة علم الخطابة وقواعدها وأصولها على تكوين خطباء تسعى إليهم المنابر ، إلا إذا استطاعت دراسة علم العروض والقافية أن تخرج شاعراً تهفو إلى أغاريده القلوب . . . فلابد من الموهبة والاستعداد الفطرى اللذين تهذبهما الدراسة ، وتضبطهما الأصول وتخرجهما على أحسن الوجوه .